العنوان:	الادب الديني مصدرا لتاريخ المغرب الحديث
المصدر:	مجلة البحث التاريخي
الناشر:	الجمعية المغربية للبحث التاريخي
المؤلف الرئيسي:	بوشنتوف، لطفي
المجلد/العدد:	ع7,8
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2010
الصفحات:	93 - 100
رقم MD:	594946
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	المغر ب ، التاريخ، الادب الديني، النقد الادبي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/594946

الأدب الديني مصدرا لتاريخ المغرب الحديث

لطفي بوشنتوف

كلية الآداب - عين الشق - الدار البيضاء

في سنة 1974 صدر كتاب جماعي بعنوان **صناعة التاريخ Faire de l'histoire**. وأراد المشرفان عليه، Jacques le Goff و Pierre Nora، كما أراد محررو مادته، أن يكون أكثر من محصّلة، ومغايرا للنظرة الشاملة. وارتأوا أن يكون تشخيصا لوضع التاريخ، كما يمارسه المؤرخون المنحدرون من آفاق متنوعة والمنتمون إلى أجيال مختلفة، والمتقاسمون نفس الدأب على البحث بغض النظر عن تنوع المدارس التي تصب فيها كتاباتهم. كما رغبوا أيضا أن يكون منطلق مسارات جديدة في السبر التاريخي، وهي مسارات انخرط فيها فعلا عدد ممن أدلى بشهادته في الكتاب.

اتفق واضعو الكتاب على أن جدّة التاريخ ترصد من خلال ثلاث سيرورات اختاروها عناوين لأجزائه الثلاثة:

1- إشكالات جديدة، تعيد النظر في التاريخ نفسه.

2- مقاربات جديدة، تطور وتغني مجالات التاريخ التقليدية.

3- مواضيع جديدة، تثري الحقل الابستمولوجي للتاريخ[1] .

والظاهر أن مقاصد ورشات الجمعية المغربية للبحث التاريخي غير بعيدة عن هذا المشروع الطموح، الذي سأتخذ خطاطته نموذجا للحديث عن **الأدب الديني مصدرا لتاريخ المغرب الحديث.** وهي مساهمة لا تهدف إلى إحصاء الدراسات التي اعتمدت الآداب الدينية جزءا أو كلا في مواضيعها، كما أنها لن تلخص محتوياتها، وإنما ستركز على الأسئلة المنهجية والمشاكل النظرية التي اعترضت أصحابها، وستستشهد بنماذج منها نحت إلى الجدة في المقاربة والمضمون.

---

[1] - Le Goff (Jacques) et Nora (Pierre) sous direction, *Faire de l' histoire, I: Nouveaux problèmes, II: Nouvelles approches, III: Nouveaux objets,* collection Folio‹histoire, Sarthe-Gallimard,1986.

أولا : محطات منهجية مؤسسة

يتبين بداهة لقارئ ما كتب حول المغرب الحديث قديمه وراهنه أن هناك اقتناعا واعيا ومدركا لدى الباحثين بأن المادة الدينية الخام مصدر أساسي لكتابة تاريخ هذه الحقبة، تفي كما جاء في مقاليAlphonse Dupront و Dominique Julia حول الأنثربولوجية والتاريخ الدينيين، بتقليص الفارق بين التاريخ المعيش والتاريخ المستعاد، من منطلق أن المادة الإخبارية التي دونت عن وعي للتأريخ لا تعدو أن تكون إلا تمثلا من بين تمثلات عدة للماضي، ولا يمكنها بالتالي أن تدعي بمفردها امتلاك الحقيقة، الذي يتطلب توسيع حقل التاريخ وتمديده ليشمل مثلا التاريخ الاجتماعي بذهنياته وعقلياته...إلخ[1].

تفيد إطلالة سريعة على المنتوج التاريخي الذي اختار الأدب الديني مادة وحقلا، بحصول تراكم هام ساهم فيه باحثون من المرحلة الكولونيالية كما ساهم فيه باحثون آخرون من غير المؤرخين بعد الاستقلال. ويعود الفضل، من وجهة نظري الخاصة وبالنسبة لتاريخ المغرب الحديث تحديدا، إلى الباحثين الرائدين محمد حجي ومحمد القبلي، في التأسيس لرؤيا ومنهج خاصين باعتماد الأدب الديني مصدرا للتأريخ وبكتابة التاريخ الديني نفسه.

سطر العلامة محمد حجي، وهو يناقش في أبريل 1963 رسالته **الزاوية الدلائية ودورها العلمي والسياسي**، هدفا ومنهجا لم تحد عنهما معظم الدراسات الشبيهة. ويكمن الهدف في كشف ما "بقي غامضا"، في إشارة إلى حلقات مفقودة أو ملتبسة وقتئذ من تاريخ المغرب. كما يكمن في كتابة "بحث نزيه يذكر فيه ما للمؤسسة الدينية وما عليها"، في تلميح إلى ما اعترى المدرسة الكولونيالية من هفوات. واختار محمد حجي لتلبية هذا المطلب مادة مصدرية معظمها من جنس الآداب الدينية. وأصبح تصنيفه لهذه المادة وتعريفه بها، معتمد الباحثين مذ صدر الكتاب سنة 1964. ووضع محمد حجي من حيث المنهج إطارا مهيكلا لدراسة المؤسسة الدينية، قوامه البحث في البدايات ظرفية ومُؤَسِّساً، وفي التعاليم سَنَدا ومِنهاجا، وفي الوظائف تربية وتعليما، وفي الأدوار إطعاما وإيواء وبركة

[1] -Dupront (Alphonse), Anthropologie religieuse + Julia(Dominique), Histoire religieuse, In La religion, *Ibid.*, tome II.

واحتفالا...، وفي النفوذ أتباعا ومجالا وثراء وطموحا، وفي العلاقات سياسية ودينية[1]. وقد التزم الباحثون في دراسات مشابهة نفس الإطار.

ويضيف محمد حجي، في **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، وهي الأطروحة التي ناقشها سنة 1976 بالسربون، محددات منهجية جديدة للتعامل مع الآداب الدينية، تفصح عن رؤيا علمية متنورة، و مفادها:

- أن الآداب الدينية تعبر عن فكر الإنسان المغربي وثقافته، مثلما تعبر عنهما الصبغة الأدبية.
- وأن رصد هذا الفكر وهذه الثقافة لا يتم إلا في إطار حركية تاريخية يحكمها الزمن الطويل والمجال الواسع.
- وأن فهمها لن يتم بمعزل عن فضاء عام متسع، تتداخل فيه وتتقاطع تأثيرات المشرق عن طريق رحلات الحج والطلب، والضفة المتوسطية الشمالية عن طريق حروب الاسترداد ثم الاحتلال، ومنطلق الهجرات الأندلسية والمغاربية والسودانية.
- وأن المتن الديني ليس بجامد أو أحادي التوظيف، بل هو حي ذو روح وأبعاد وغايات، يتطلب جهدا لاستنطاقه وإدراك كنهه والإمساك بتلابيبه، وكذلك ربطه بالظرفية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أنتجته. ومن تم لم يكن تخصيص جزء هام من الكتاب - الأطروحة لمسائل فكرية من خلال نصوص طويلة إلى حد ما اختيارا اعتباطيا[2]، بل هو في اعتقادي إرهاصا جنينيا لأعمال لاحقة من قبيل **من الشاي إلى الأتاي** لمحمد لخصاصي وعبد الأحد السبتي[3].

أما أطروحة الأستاذ محمد القبلي **المجتمع والسلطة والدين في مغرب نهاية العصر الوسيط**[4] التي ناقشها في يونيو 1984 بالسوربون[5]، ومهد لها سنة 1978 بمقال : **مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور**

---

[1]- محمد حجي ، **الزاوية الدلائية و دورها الديني و العلمي و السياسي**، الرباط، 1964.

[2]- **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، فضالة-دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر، 6-1978، جزآن.

[3]- عبد الأحد السبتي ولخصاصي، **من الشاي إلى الاتاي : العادة و التاريخ**، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، 1999.

[4] - Kably(Mohamed), *Société pouvoir et religion au Maroc a la fin du moyen âge: XIV-XV siecle*, collection Islam d' hier et d aujourd'hui, Paris-Maisonneuve et Larose,1986.

[5]- و عنوانها الفرعي وقتها : des Mérinides aux Wattassides

دولة السعديين[1]، فقد ألقت بظلها الوافر على البحث في تاريخ المغرب الحديث. ومن خاصيات هذا العمل، الذي أراد له صاحبه أن يكون محاولة لفهم منعطف بمثابة تبدل مفصلي في تاريخ المغرب وهو ظهور دولة الشرف، أنه تبنى قراءة نقدية وتركيبية لما اعتمده من مصادر تصنف ضمن الأدب الديني، وذلك في موضوع يحتل فيه الخطاب الديني والمؤسسات الدينية مكانة مركزية. وتهدف هذه القراءة إلى تجاوز الكتابات النمطية، وترتكز على استعادة الأنساق ثم تفكيكها وبعد ذلك كشف ميكانزماتها في تطورها التاريخي الخاص. وتعد هذه الآلية المنهجية، إلى جانب الأطروحة الساحرة التي دافع عنها المؤلف بطبيعة الحال، أهم ما استفاده الباحثون في تاريخ المغرب الحديث من الكتاب والمقال، وخصوصا فيما له علاقة بالمقدس والتصوف والفقه والشرف. إذ استطاع من توفق منهم الإمساك بالخيوط المتشابكة في قضايا بحثه وإنتاج أعمال تنزع إلى التركيب وتتجنب التكرار والاقتصار على الوصف والاطمئنان لظاهر النصوص وإن كانت دينية.

ثانيا :مقاربات جديدة

تزامن ظهور الكتاب- المحطة Faire l'histoire، الذي صَدَّرْنا به هذه المساهمة، مع إعادة طبع مؤلف مارك بلوخ Marc Bloch **دفاعا عن التاريخ** Apologie de l'histoire أو **مهنة المؤرخ** Métier de l'historien[2]، عن قصد وغاية. وكانت إحدى قضايا هذا الكتاب - المرافعة، والمتعلقة بتقسيم الوثيقة إلى مقصودة وغير مقصودة، مدار نقاش وحوار مثمرين بين المؤرخين وغير المؤرخين، خلال ندوتي **التاريخ وأدب المناقب**[3] و**التاريخ وأدب النوازل**[1] وعلى هامشيهما وفي الملتقيات التي أعقبتهما.

---

[1]- محمد القبلي، "**مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين** "، مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، العدد المزدوج 3و4، 1978، ص.7-59.

[2]- صدر الكتاب سنة **1942**، و أعيد طبعه سنة **1974**. انظر:

Bloch(Marc), *Apologie pour l' histoire ou Métier d' historien*, Paris -A. Colin,1974.

[3]- **التاريخ و أدب المناقب**، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط-عكاظ، 1989. و الكتاب أشغال ملتقى ابريل 1988.

وتمخض السؤال في قصدية الآداب الدينية، عن تشريح لمادتها، أفضى إلى تنوع في المقاربة بين الباحثين، كما يمكن تلمسه من خلال رأيين مختلفين:

الرأي الأول، قصر النظر على ما انضبط من الآداب الدينية لقواعد التأريخ التقليدية، أي الزمن والمكان والحال. كما بذل الجهد في تطويع النص ليصبح مادة مصدرية مألوفة، وجرده بالتالي من صبغته الدينية. وقد كان لهذه القراءة الاجتزائية والاستقرائية الفضل في الحصول على إفادات ثمينة أكملت وحققت معطيات من المصادر التقليدية، وأجابت عن أسئلة عالقة من تاريخ المغرب الحديث. كما كان لها الفضل في الإسهام بشكل كبير في التاريخين المحلي والجهوي (منوغرافيات).

أما الرأي الثاني، فقد ألح على أهمية مجمل الأدب الديني، وعلى ضرورة اعتماده كمتن له خصوصيات تترتب عليها تنويع المقاربة بالتفتح على العلوم الإنسانية والاستفادة من مكاسبها الأدواتية والنظرية. وعلى الرغم من قلة إنتاج المؤرخين المستجيبين لهذه الدعوة، فإن تنبيه أصحابها إلى خصوصية المتن الديني يعد غاية في الأهمية. ويمكن أن نوجز هذه الخصوصية في المستويات التالية:

1- مستوى بنية النص الشكلية، التي تفرض الاهتمام بمساحته، وكثافته، وتماسكه، ومنطق بنائه(ترتيب مادته)...

2- مستوى المضمون، الذي يستوجب الحفر فيه عن بقايا الثقافة الشفوية، وأبعاد المتن الكونية والإسلامية والمحلية، وحمولته اللغوية والاصطلاحية والرمزية (الطقوس). كما يتطلب البحث في المسكـــوت عنه (الصمت-المغيب-المضمر).

3- مستوى التقاطعات مع متون مشابهة معاصرة أو سابقـــة أو لاحقة زمنيا، والتي تفيد أن بنية النص الديني قائمة على التكرار، وتستوجب استحضار الأنموذج Le paradigme، وفهم الإشارات الكبرى على أنها تعكس أنماطا عقلية وذهنية وأحوالا ترصد في الزمن الطويل.

4- مستوى الخطاب، الذي يستلزم البحث في أسباب نزول المتـــن وكيفيات توظيفه، والمقاييس المعتمدة لانتقائه.

---

[1]- **التاريخ وأدب النوازل: دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر**، انجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، المحمدية، 1995. و الكتاب أشغال ندوة دجنبر 1989.

5- مستوى التأويل، والذي يعد غاية المستويات السابقة أعلاه والممهدة له. كما يعتبر الجانب الذي يخشى المؤرخ مزالقه ومثالبه أكثر من غيره. إذ كيف له أن يطمئن مثلا إلى خرق العادة والحلم والمتخيل كمادة منقبية، وإلى النظرة المعيارية المقننة للمجتمع كمادة نوازلية...؟

كانت هذه المستويات فعلا موضوع نقاش طويل بين المؤرخين وحوار مثمر مع من سواهم. وكان من المنتظر أن تفضي إلى تغيير زاوية المساءلة وإثراء المقاربة وبالتالي إنتاج قراءات متعددة ومتنوعة وإن اعتمدت على نفس المتن (إعادة كتابة مستمرة للتاريخ). فما الذي تحقق من تاريخنا الجديد؟ .notre nouvelle histoire

ثالثا :مواضيــــع جديـــــدة

يفيد تراكم البحث في تاريخ المغرب الحديث اعتمادا على الأدب الديني حصول تطور ملموس في المقاربة والمنتوج. والشاهد على ذلك مثلا الفرق الواضح بين **الحركة العياشية**، الرسالة التي ناقشها عبد اللطيف الشاذلي سنة 1975[1]، من دون الاعتماد على آداب دينية ذات علاقة وطيدة بموضوعها، وبين **التصوف والمجتمع: نماذج من القرن العاشر الهجري**، الأطروحة التي ناقشها سنة 1987[2]، واعتمد فيها الأدب الديني من خلال مقاربة مستوحاة من الأنثروبولوجية التاريخية، بدءا من وضع خريطة للمقدس وانتهاء بتأويل الرموز والطقوس...

ويمكن إجمالا اختزال بعض سمات هذا التطور والخلاصات الناتجة عنه في المستويات التالية:

أولا، توظيف بعض المسبقات النظرية أو المقاربات القبلية، التي أثارت في السابق تحفظ عدد من المؤرخين، وذلك إما ضمنيا أو بوضوح. ومنها ثنائيات: تصوف شعبي- تصوف سني، إسلام شعبي - إسلام سني، تدين البادية - تدين المدينة، ثقافة العوام - ثقافة الخواص، العرف - الشرع ... الخ.

[1]- عبد اللطيف الشاذلي ، **الحركة العياشية: حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1982.

[2]- عبد اللطيف الشاذلي ، **التصوف و المجتمع: نماذج من القرن العاشر الهجري**، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلا، 1989.

ومنها أيضا بعض مكونات النظرية الانقسامية، وخصوصا ما يفيد العلاقة بين القبيلة والزاوية ووظيفة الصالح التحكيمية والتروع إلى التمرد والاحتجاج من جهة، وبين مركزية المخزن وجبروته زمن القوة أو انكماشه وغيابه فترات الضعف من جهة ثانية، وذلك كله في ظل توازنات هشة وقابلة للانفجار.

ثانيا، التوصل إلى خلاصات في شكل أطروحات، مثل تلك التي تحدثت عن الرأسمال الرمزي: تكونا وتدبيرا وتوظيفا وعلاقة بالرأسمال المادي، وعن مجتمع الخوف وتراث الأزمة والقلق، وعن اقتصاد القلة، وعن بطء حركية المجتمع...الخ.

ثالثا، قراءة جديدة للبدعة، من خلال إخضاع فقهها النوازلي للنقد الداخلي، باعتباره موقف تنميطي للمذهب والطريقة السائدين. وترتب على هذه القراءة إعادة النظر في تهمة التبدع بالنسبة لبعض الطوائف مثل العكازية[1] والأندلسية[2].

رابعا، تنويع الأطروحات المفسرة لانتقال الحكم من الدولة الأمازيغية إلى الدولة الشريفة، والباحثة في المشروعيات المواكبة له، بحيث انضاف دور العلماء إلى أدوار الزوايا والجهاد والشرف[3].

خامسا، البحث في التجاوز من خلال مقارنة المغرب بأوروبا بدءا من القرن 15م. وكان عبد الله نجمي سباقا إلى ملامسة هذا الموضوع المحفوف بالمخاطر، حينما عقد في مقال سنة 1996 مقارنة بين الصوفي محمد زروق والبروتستانتي مارتن لوتر، زمن الإصلاح الديني والعصور الحديثة. وعلى الرغم من تركيز المقال على زروق سيرة وإصلاحا، فإن صاحبه دافع عن مشروعية بحث المؤرخ في المقارنة بين

[1]- عبد الله نجمي، **التصوف و البدعة بالمغرب: طائفة العكاكزة(ق16-17م)**، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء، 2000.

[2]- لطفي بوشنتوف، "**الطائفة الأندلسية: تهمة البدعة و لعنة السياسة** "، مجلة **دفاتر البحث**، الصادرة عن جامعة الحسن الثاني- عين الشق- الدار البيضاء، المجلد الأول، العدد الأول، دجنبر 2001، ص.101-139.

[3]- لطفي بوشنتوف، **العالم والسلطان: دراسة في انتقال الحكم و مقومات المشروعية(العهد السعدي الأول)**، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية-عين الشق-الدار البيضاء، المحمدية، 2004.

الحالتين المغربية والأوروبية. كما أنه أشار إلى أن التجاوز يكمن في تحول أوروبا التدريجي إلى نقد الأصول وتأويلها عقليا، وابتعاد الديني عن الدنيوي، وتجديد الفكر والمجتمع والنظام[1].

واختار عبد المجيد القدوري بعيد ذلك بسنوات قليلة التجاوز موضوعا لأطروحته **المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر**[2]، جاعلا من "التحديث والحداثة" إشكالية مركزية. وخلص اعتمادا على الأدب الديني الذي شكل جزءا هاما من دراسته، إلى أن من بين العوامل التي حالت دون "إقلاع" المغرب نزوع العلماء والمنظومة التربوية إلى المحافظة والتقليد، وتكريس الزوايا للانحطاط والتمزق، وانعدام الربط بين المعرفة والمنفعة، ومحاربة مشاريع التحديث المخزنية، وقمع محاولات الاختلاف عن الأنماط السوسيو- اقتصادية (حملة السودان - الإسلاميون). وبالمقابل، أثمرت التحولات في أوروبا عقلا فاعلا ومتحركا ومتجددا وفق تبدل الظروف والأحوال. كما أثمرت مزج العلم النظري بالعلم النفعي العملي...

ويتضح أن صاحب الأطروحة قرأ مصادره من خلال جهاز مفاهيمي يحيل على Max Weber وMaxime Rodinson ومحمد الجابري وعبد الله العروي وغيرهم.

---

[1]- عبد الله نجمي، "بين زروق و لوثر: **في الإصلاح الديني و العصور الحديثة**"، ضمن **الرباطات و الزوايا في تاريخ المغرب: دراسات تاريخية مهداة للأستاذ إبراهيم حركات**، انجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء، 1997، 77-120.

[2]- عبد المجيد القدوري، **المغرب و أوربا مابين القرنين الخامس عشر و الثامن عشر(مسالة التجاوز)**، بيروت-المركز الثقافي العربي، 2000.